

الفصل السادس

نزاع في الجيش

كانون اول ١٢٠٢ - كانون ثاني ١٢٠٣

وبعد اسبوعين وصل المركيز دي مونتفرات ، الذي لم يكن بعد قد عاد للانضمام للجيش الى زارا وصل بصحبة ماثيو دي مونتفورنسي وبيير دي براسيو وعدد كبير من الرجال الطيبين ، وبعد اسبوعين من ارسال المبعوثين من المانيا من قبل الملك فيليب ، وولي عهد القسطنطينية وصلوا بدورهم ، واجتمع البارونات في قصر كان دوج البندقية يسكنه في حينه وهنا سلم المبعوثون رسالتهم وقالوا : سادتنا لقد ارسلنا اليكم من قبل الملك فيليب واخي زوجته نجل امبراطور القسطنطينية ، ويقول جلالته في خطابه اليكم :

سادتي اني مرسل اليكم اخا زوجتي الذي اضعه بين يدي الرب فليحفظه من الموت كما اضعه بين ايديكم ، وحيث انكم على الطريق لخدمة الرب ومن اجل الحق والعدل من واجبكم الى الحد الذي تستطيعونه ان تعيدوا الملكية لمن جردوا منها ظلما ، وسيعرض الامير اليكسيوس عليكم افضل الشروط التي قدمت على الاطلاق لاي شعب ، وسيعطيكم اقوى دعم في فتح بلاد ماوراء البحار :

اولا اذا اراد الرب لكم ان تستردوا ميراثه له فانه سيضع كامل امبراطويته تحت سلطة روما التي اقصيت عنها زمانا طويلا

ثانيا ، طالما انه يعرف انكم قد انفقتم كل اموالكم ، وليس لديكم شيء منها الان انه سيعطيكم ٢٠٠٠٠ ر ٢٠٠٠ مارك فضي ، وموئنا لكل رجل في جيشكم من القادة والرجال على السواء ، علاوة على أنه هو نفسه سيذهب في صحبتكم الى مصر ، مع عشرة الاف رجل ، او

اذا فضلتم ان يرسل العدد نفسه من الرجال معكم ، وعلاوة على ذلك فإنه طيلة حياته سيحتفظ على نفقته بخمسمائة من الفرسان للمرابطة في اراضي ماوراء البحار .

ثم استطرد المبعوثون قائلين : سادتنا ان لدينا السلطة العامة لابرام هذه الاتفاقية اذا كنتم من جانبكم تريدون قبول شروطها ، ويمكننا ان نبين ان مثل هذه الشروط المواتية لم تقدم من قبل لاحد ، والانسان الذي يمكنه رفض قبولها تكون رغبته قليلة في الاستيلاء على اي شيء بالمرّة ، واجاب البارونات انهم سيبحثون في الامر ، ورتب لعقد مؤتمر في اليوم التالي ، وحين حضر الناس جميعا للاجتماع طرحت امامهم الشروط ، وكان هناك تشتت كبير في الرأي في الاجتماع ، وكان لدى راعي الدير البندكتي في قو شيء ليقوله بشكل مشترك مع الذين كانوا متلهفين على حل الجيش ، وأعلن الجميع بانهم لن يعطوا مطلقا موافقتهم ، طالما انها تعنى الزحف ضد المسيحيين ، ، وأنهم لم يتركوا اوطانهم ليفعلوا مثل هذا الشيء ، وبالنسبة لهم انهم يريدون الذهاب الى سورية. واجاب الطرف الاخر : ايها السادة الطيبون ، لايمكنكم ان تحققوا شيئاً في سورية كما يمكنكم ان تتروا بسهولة اذا فكرتم في مصير اولئك الذين تخلوا عنا ليجروا من موانئ اخرى ، ويجب ان نصر انه فقط عن طريق مصر واليونان يمكننا ان نأمل في استعادة الارض فيما وراء البحار ، اذا حدث هذا قط بالمرّة ، واذا رفضنا هذه الاتفاقية سيكون ذلك عارا ابديا لنا .

وهكذا حدث نزاع في الجيش ، ولايمكننا ان نعجب اذا كان عامة الناس في نزاع ، وعندما كان الرهبان البندكتيون الذين صحبوا القوات بشكل مساو في خلاف مع بعضهم بعضا ، ووعظ راعي دير لوس الذي كان مقدرًا لطيبته وحكمته القوات كما فعل رعاة الدير الاخرون من حزبهم ، واخذوا كلهم يحضونهم بحماس باسم الرب أن يبقوا على اجتماع شمل الجيش مع قبول الاتفاقية المقدمة لانها - هكذا الحوا - كانت تقدم افضل فرصة لاسترداد الارض

فيما وراء البحار . ومن جانب اخر خاطب راعي دير فومع الاكليوس الذين كانوا يؤيدونه الجيش في مناسبات عديدة معلنين ان خطط الطرف الاخر لم تكن جيدة بالمرّة وانه احرى بهم ان يتجهوا الى سورية ، وان يفعلوا هناك ما بإمكانهم ان يفعلوه .

وعند هذه النقطة تدخل المركيز دي مونتفرات والكونت بلدوين دي فلاندرودي هينوت ، والكونت لويس دي بلوا ودي كارنان ، والكونت هوغ دي سانت بول ، الى جانب اخرين ممن وقفوا في جانبهم تدخلوا في النزاع ليعلنوا من جانبهم أنهم قد عقدوا العزم على قبول الاتفاقية ، ذلك انهم يخلطون من رفضها وهكذا ذهبوا الى قصر الدوج ، وبعد استدعاء المبعوثين تم تأكيد الميثاق على الشروط نفسها التي سلف ذكرها بعقود تم توقيعها بالشكل المناسب وختمها .

ويجب ان اخبركم هنا ان اثني عشر شخصا فقط في المجموع قد اقساموا نيابة عن الفرنسيين ، ولم يكن بالامكان حث المزيد على اتباعهم ، وكان اول من اقسام هو المركيز دي مونتفرات ، وبعده الكونت بلدوين دي فلاندرز والكونت لويس دي بلوا ، والكونت دي سانت بول ثم الثمانية الاخرين من حزبهم ، وهكذا جرى التصديق على الميثاق وابرمت العقود ، وحدد بعد ذلك يوم لوصول امير القسطنطينية ، وكان قد قرر لذلك بعد عيد الفصح بأسبوعين من السنة التالية .

وامضى الجيش كامل ذلك الشتاء في زارا مستنفرا ضد ملك هنغاريا ، ويمكنني ان اؤكد لكم أن قلوب شعبنا لم تكن في سلام ، لان احد الطرفين كان يعمل باستمرار على حل الجيش ، والاخر على الابقاء على اجتماع شمله .

وخلال ذلك الوقت فر رجال كثيرون من المراتب الدنيا من الجيش،

وهربوا على سفن تجارية ، ورحل نحو خمسمائة منهم على سفينة واحدة .

ولكنهم جميعا ماتوا غرقا ، وهربت مجموعة اخرى عن طريق البر معتقدين انهم سيسافرون بامان عبر سكلافونيا ، ولكن اهالي تلك البلاد هاجموهم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، واما الذين نجوا فغادروا مسرعين الى الجيش نفسه ، وهكذا كانت قواتنا تتضاءل من يوم الى يوم ، وفي الوقت نفسه احتال غارنيير فون بورلاند الذي جاء الينا من المانيا وشغل مرتبة عالية في جيشنا ليحصل على حق السفر على ظهر سفينة تجارية ، ومن ثم هرب وقد وجه إليه لوم شديد على هذا السلوك ، وبعد ذلك بوقت غير طويل توسل احد بارونات فرنسا الكبار ويدعى رينودي مونتميرال بالحاح شديد حتى امكنه برغم من الكونت لوييس ان يرسل في مهمة الى سورية على احدى سفن الاسطول ، وكان هو وكل الفرسان الذين قد اقساموا على الانجيل المقدس على انهم سيهون للانضمام الى الجيش بعد وصولهم الى سورية وتسليم رسالتهم ، وذلك بما لا يتجاوز اسبوعين وعلى هذا الشرط سمح لرينو بالذهاب فأخذ معه ابن اخيه هرفيه دي شاتيل ووليم موثق العقود وجيوفري دي بومونت ، وجين دي فردفيل ، واخاه بيير وعدد كبير اخر ، لكنهم لم يحافظوا على قسمهم ايضا ، لانهم لم يعودوا مطلقا الى الجيش ، وبعد قليل سرت قواتنا كثيرا بسماع انباء بان الاسطول من فلاندرز والذي سلف وتكلمت عنه قد وصل الى مرسيليا ، وبعث جين دي نلس حاكم بروغ الذي كان يتولى قيادة هذا الجيش مع ابن الكونت فيليب دي فلاندرز ابنه تيري ونيكولاس دي ميلين برسالة يخبرون بها اميرهم الكونت بلدوين دي فلاندرز انهم كانوا يشتدون في ذلك الميناء ، وطلبوا منه ان يخبرهم بما لديه من اوامر لهم ، مؤككين له في الوقت نفسه بانهم سيفعلون كل ما يأمرهم به أيا كان ، وبعد التشاور مع دوح البندقية والبارونات الفرنسيين طلبوا اليهم ان يبحروا عند اخر اذار وان يأتوا لمقابلتهم في ميناء مثيون في رومانيا ، وللأسف اساءوا التصرف جدا ، لانهم حدثوا بكلامهم وأبحروا بدلا من ذلك الى

سورية ، حيث لا بد انهم لم يكونوا قادرين على فعل شيء يستحق الذكر ، ويمكنني ان اؤكد لكم ايها السادة بان الرب لو لم يكن يحب جيشنا ، لما تماسك عندما اراد به كل هؤلاء الناس السوء .

وخلال الشتاء اجتمع البارونات معا وقرروا ارسال نواب عنهم لرؤية البابا ، الذي كان مستاء لدرجة كبيرة بسبب استيلائهم على زارا ، وقد اختاروا المبعوثين فارسين ورجلين من ذوي المراتب المقدسة ممن عرفوا فيهم الصلاحية لمثل هذه المهنة ، وكان احد رجلي الاكليروس نيفلون اسقف سواسون والثاني جين دي نويون مستشار الكونت بلدين بي فلاندرز ، وكان الفارسان هما جين دي فرييز وروبرت دي بوف ، واقسم هؤلاء الرجال الاربعة على الانجيل المقدس بانهم سينفذون مهمتهم بوفاء واخلاص ، ثم يعودون للانضمام للجيش .

والتزم ثلاثة منهم بكل دقة بقسمهم ، وبرهن الرابع روبرت دي بوف على انه غير اهل للثقة ، وفي الواقع انه لم يكن لينفذ مهمته باسوأ مما فعل ، لانه حدث بقوله ومضى الى سورية ، كما فعل اخرون قبله ، وادى الثلاثة الباقون واجبهم بضمير ، وسلموا رسالتهم للبابا ، كما وجه البارونات - قائلين : « يا صاحب القداسة ان امرانا يرجونكم ان تنظروا نظرة رحيمة لاستيلائهم على زارا ، وان تروا انهم قد تصرفوا كأناس لم يكن لديهم خيار افضل ، سواء من خلال خطأ اللين ذهبوا الى موانئ اخرى اولانه لم تكن لديهم طريقة اخرى للابقاء على وحدة الجيشين ، وهم بناء على ذلك يطلبون منكم باعتباركم اباهم الطيب ان تعلموهم مايسركم ان تأمروا به ، وسيطيعون بكل سرور ، واخبر البابا المبعوثين بانه كان مدركا تماما بانهم قد اضطروا بالتصرف بهذه الطريقة بسبب خطأ شعبهم ، وانه قد شعر بعطف كبير عليهم ، وهكذا ارسل رسالة جوابية يحيي فيها البارونات والصليبيين الاخرين ويمنحهم بركاته ، ويبلغهم انه قد منحهم الغفران كأبناء له ، ورجاهم وأمرهم ان يحافظوا على وحدة الجيش وتماسكه ان انه كان يعرف جيدا انه

بدون مثل هذه القوات لن تتحقق خدمة الرب ، وفي الوقت نفسه اعطى سلطة كاملة لاسقف سواسون وجين دي نويون لربط الحجاج وتسريحهم حتى يأتي الوقت الذي يصل فيه كارديناله ليزور الجيش.

وفي ذلك الحين كان قدر كبير من الوقت قد انقضى ، حتى انه قد حل الصوم الكبير بالفعل ، وكان الصليبيون قد بدؤوا بوضع اسطولهم في حالة تاهب للابحار في عيد الفصح ، وفي يوم الاثنين من عيد الفصح بعد ان حملت السفن عسكريت قواتنا بقرب الميناء ، في حين ازال اهل البندقية المدينة ، عن وجه الارض ، ومع كل الاسوار والابراج ، وعند هذه النقطة وقع حدث كان له شأن خطير للجيش هو ان سيمون دي مونتفورت احد البارونات العظام في قيادة الجيش كان قد ابرم اتفاقية سرية خاصة مع عدونا ملك هنغاريا ، فانتقل الان الى صفه ، وتخلي عنا ونهب معه اخوه غي دي مونتفورت وسيمون دي نوفل ، وروبرت موفوازان ، ودرودي كرسناك ، وراعي اللير البندكتي في فو ، وعدد كبير اخر ، ولم يمض وقت طويل حتى تركنا نبيل آخر من المراتب العالية في الجيش يدعى انفراند دي بوف ، واخذ معه اخاه هورغ واكبر عدد استطاع تحريضه من ولايته على اصطحابهم .

وكان مثل هذا الارتداد خطأ سيئا للجيش وعارا عظيما للذين تركوه ، وكانت السفن الحربية ووسائل النقل جاهزة للتحرك ، وقد تمت الموافقة على وجوب لجوئها الى ميناء كورفو ، وهي جزيرة ضمن امبراطورية القسطنطينية حيث تنتظر اول المراكب وصولا المتأخر منها حتى تتجمع عليها ، وحدث هذا حسب الخطة .

وقبل ان ينطلق الدوح والمركيز دي مونتفورات من زارا مع الشواني وصل الى المدينة الكيسوس ابن الامبراطور اسحق امباطور القسطنطينية الذي ارسله الى هناك الملك فيليب ملك المانيا ، وقد استقبل بجزور عظيم وتشريف ، واعطاه الدوح من الشواني والمراكب الاخرى بقدر ما كان يحتاج ، وهكذا غادروا

ميناء زارا تحملهم ريح مواتييه الى الامام حتى ابحروا بعد زمان طويل الى باخل ميناء دورازو ، وحالما رأى اهل هذا المكان اميرهم الشاب يصل سلموا عن طواعية مدينتهم ووضعوها بين يديه واقسموا بيمين الولاة له .

وبمفادرة دورازو ابهر الامير الكسيوس وجماعته الى كورفو وعند وصولهم وجدوا الجيش مخيما امام المينة ، وكانت الخيام والسراقات قد نصبت بالفعل واخرجت الفحول من سفن النقل لتحويلتها ، وفي اللحظة التي سمعت فيها قواتنا ان ابن امبراطور القسطنطينية قد وصل الى الميناء شوهد حشد كبير ، واضفوا عليه تشريفا عظيما وامر الامير بان تنصب خيمته في وسط القوات تماما في حين امر المركيز دي مونتفرات ، الذي كان الملك فيليب قد وضع اخا زوجته الشاب في عهده بخيمته فنصبت على مقربة منها ، ومكث الجيش ثلاثة اسابيع في كورفو التي كانت جزيرة خصبة جدا ، ووافرة التموين بالغذاء ، وخلال هذا الوقت وقعت حادثة بالغة التعاسة والالم حيث ان عددا كبيرا من الذين كانوا يسمعون لصل الجيش ، والذين عملوا في مناسبات سالفه ضد مصالحه تجمعوا الان معا واعلنوا ان المغامرة التي باشروها بدت لهم غير محتملة الطول والخطورة الشديدة ، وانهم بناء عليه سيبتقون على الجزيرة ويتركون بقية القوات تذهب بدونهم ، ثم انهم حالما يغادر الجيش سيعملون بمساعدة اهل كورفو على ان يبعثوا برسالة الى الكونت غونثير دي بريين الذي كان في ذلك الوقت يحتل برنديزي يطلبون منه ان يرسل اليهم سفنا لتعيدهم الى مدينته ، ولايمكثني ان اذكر لكم اسماء الذين كان لهم يد في هذا الامر ، ولكنني ساذكر عددا من الذين شغلوا دورا رئيسا فيه ، وهؤلاء كانوا يودس دي شاميليت ، وجاك دي افنس وبيير دي اميان ، وغي شاتلان دي كوسي ، واوغيير دي سانت شيرون ، وغي دي شاب ، وابن اخيه كليرمبود ، ووليم دي اونوا ، وبيير كواسو ، وغي دي برنس ، واخوه ايمون ، وغي دي كونغلانس ، ورتشارد دي دامبيير ، واخوه يودس ، وغير هؤلاء ، كان هناك عند كبير اخر ممن اتفقوا سرا بالانضمام الى

حزبهم ، ولكنهم لم يجرؤوا على الاقرار بذلك علنا ، لانه امر مخجل
جدا ، وفي الحقيقة انه لصحيح القول ان اكثر من نصف الرجال في
الجيش كانوا بالعالية نذسها ، وهالما ادرك المرکز دي مؤنقدرات
والكونت بلديون دي فلاندرز والكونت لويس والكونت دي سانت
بول ، والبارونات الذين اتفقوا معه ، الحالة اضطربوا بشكل خطير
وقالوا : « سانتنا ، اننا في موقف يائس جدا ، وانا تركنا هؤلاء
الناس كما فعل عدد كبير جدا من قبل في مناسبات مختلفة ، سيكون
الجيش قد هلك ، ولن ننتصر على شيء ، فلماذا لا نذهب ونرجع وهم
للرب ليظهروا بعض الاهتمام بانفسهم وبنا ، ولا يشينوا انفسهم
ولا يهرموننا من الفرصة لتحرير الارض فيما وراء البحار . »

وقرروا ان يفعلوا ذلك ، ونهبوا جميعا في مجموعة الى واد حيث
اجتمع الطرف الاخر في مؤتمر ، واخذوا معهم امير القسطنطينية
الشاب وكل الاساقفة الذين كانوا مع القوات ، وهالما وصلوا الى
هناك تزلوا عن خيولهم ، في حين تزل الاخرون وقد رأوهم
يحضرون عن احصنتهم ايضا ، وجاءوا للقائهم ، وخر المرکز
والذين معه على اقدام الطرف الآخر وهم يبكون بمرارة ، وقالوا
انهم لن ينهبوا ثانية حتى يعد اولئك الرجال ان لا ينهبوا
ويتركوهم .

وعندما تأثر الذين كانوا يعتزمون الفرار بعمق وتفجرت دموعهم
بمراى امرائهم ، واقاربهم واصدقائهم وهم راكعين امامهم ، وهكذا
قالوا انهم سيدشاورون معا ، وانسحبوا الى مسافة قصيرة
ليتناقشوا في الامر ، وكانت نتيجة دراستهم انهم قرروا البقاء مع
الجيش حتى عيد القديس ميكايل كبير الملائكة شريطة ان يؤدي
الاخرون القسم في حينه على الانجيل المقدس انه من ذلك الوقت
فصاعدا في اي لحظة يطلب منهم سيزودونهم بكل اخلاص وبدون
نفاق بالسفن الكافية لينهبوا فيها الى سورية ، وذلك خلال
اسبوعين من تقويم مثل هذا الطلب .

- ٤٤٣٠ -

وبالتالي جرى الاتفاق ووثق بالقسم وعم على الفور فرح عظيم في كل الجيش ، وصعد كل الناس الى ظهور السفن ووضعت الخيول في داخل سفن الذقل .

الفصل السابع

رحلة الى سكوتاري

أيار - حزيران ١٢٠٣

أبحر الجيش من ميناء كورفو عشية عيد الحصاد في سنة ١٢٠٣ لتجسيد ربنا ، وكان كل الاسطول مجتمعا هناك : الشواني وسفن النقل والسفن الحربية وأيضا عدد كبير جدا من السفن التجارية التي كانت تصاحب القوات ، وكان اليوم جميلا ومشمسا ، والرياح لطيفة ومواتية ، وكانت السفن قد نشرت أشرعتها للذسيم .

ويشهد جيوفري دي فيلهارين ، مارشال شامبين ومؤلف هذا العمل - الذي لم يضع شيئا قط حسب معرفته بشكل يعارض الحقيقة ، والذي كان علاوة على ذلك حاضرا كل المؤتمرات التي سجلت في صفحاته - هنا أن مثل هذا المنظر الجميل لم يشاهد من قبل ، وبدا حقا أنه يوجد هنا أسطول يمكن أن يفتح البلدان لأنه على المدى الذي يمكن أن تصل اليه العين لم يكن هناك شيء يرى سوى الأشرطة المنشورة على كل هذا العدد الكبير من السفن حتى أن قلب كل رجل كان مليئا بالبهجة لهذا المنظر ، وأبحرت السفن عبر امتداد واسع من الماء ، حتى وصلت الى رأس ماليا عند الطرف البعيد للمضايق بين امتدابين من عرض البحر ، هنا حدث أن أقيت سفننا سفينتين وهما في طريقهما عائنتين من سورية وهما مليئتان بالفرسان والسرجنية والحجاج الذين كانوا جزءا من المجموعة التي نهبت الى تلك البلاد عن طريق مرسيليا ، وبرؤيتهم لاسطولنا بهذه الروعة وحسن التجهيز غلب على هؤلاء الرجال العار حتى أنهم لم يجرؤوا على اظهار وجوههم ، وأرسل الكونت بلدين دي فلاندرز فارسا من سفينته ليستعلم عن عملهم وليخبر بمن كانوا ، وانزلق

الحد السرجنية من واحدة تلك السفن على جانبها ، وألقى بنفسه في قارب الكونت ، وصاح في النين تركهم على السطح : بامكانكم أيها الرجال أن تفعلوا ما تحبون بكل شيء تركته خلفي ، فأنا ذاهب مع هؤلاء الناس ، لأنه يبدو لي بالتأكيد أنهم سيربحون بعض الأرض لأنفسهم ، وقد أعطي هذا الرجل ترحيبا جميلا جدا من قبل القوات ، وقد اعتقد الجميع أنه رجل جيد جدا ، وفوق كل شيء وكما كان الناس ينزعون للأقول إنه لا يهم كم يخطيء المرء لأنه يستطيع دائما أن يعود الى طريق الصواب في النهاية ، وأبحر الأسطول مكملا برنامجه حتى بلغ الى خليج نفروبونت الذي تطل عليه مدينة جميلة جدا تحمل الاسم نفسه ، وهنا عقد البارونات مؤتمرا ، أبحر بعده الماركيز بونيفيس دي مونتفرات والكونت بلدوين دي فلاندرز متجهين نحو الجنوب مع قسم كبير من الشواني ، وسفن النقل حتى بلغوا جزيرة أندروس حيث رسوا ، وسلمح الفرسان أنفسهم واجتاحوا المنطقة حتى ناشد أهل أندروس أخيرا ابن الامبراطور أن يشفق عليهم وأعطوه الكثير من أموالهم وسلعهم حتى تدبروا أمر السلام معه ، ثم عاود الفرسان ضم سفنهم وأبحروا متابعين طريقهم ، ولكن خلال الرحلة عانوا من محنة كبيرة لأن غي أمر قلعة كونسي ، وهو رجل نبيل رفيع المنزلة جدا في الجيش مات وألقي به في البحر ودفن فيه .

وفي تلك الأثناء دخلت السفن التي لم تتبع المسار المتجه جنوبا ، دخلت قنال ابيدوس حيث تلتقي مضائق سان جورج بعرض البحر ، وأبحروا في المضائق صعوبا حتى ابيدوس ، وهي مدينة جميلة جدا حسنة الموقع الى جوار الماء الأقرب لتركيا ، وهنا تركت القوات سفنها في الميناء ونزلت الى البر ، وخرج شعب ابيدوس للقائهم وسلموا المدينة لهم فورا كرجال لا تتوفر لديهم الشجاعة الكافية للدفاع عن أنفسهم ، وعلى أي حال فقد نظم الجيش حراسة جيدة على المدينة حتى أن الناس في المدينة لم يفقدوا ما يساوي أصفر قطعة نقد متداولة بينهم ، وبقيت القوات هناك مدة أسبوع في انتظار تلك السفن الحربية والشواني وسفن النقل التي لم تكن قد وصلت

بعد لتنضم اليهم ، وخلال هذا الوقت استولوا على القمع بينما كان يحصد لأنه كان موسم الحصاد ، وكانوا في حاجة ماسة لمثل هذه المؤن حيث لم يبق لديهم سوى القليل من المخزون ، وبحلول نهاية الأسبوع ، وحيث منحهم الرب طقسا جميلا فإن كل المراكب الباقية وبقية البارونات وصلوا الى أبيدوس ، وأبحر كل الأسطول بعد ذلك معا من الميناء ، وفي لحظة الرحيل بدت مضايق (اليوسفور) سانت جورج في اتجاه الشرق مع الحشد الكامل من السفن الحربية والشواني ومراكب النقل كما لو كانت مزهرة ، لقد كانت حقا تجربة رائعة رؤية مثل هذا المنظر الجميل ، وأبحرت السفن متجهة الى أعلى المضايق حتى وصلت عشية يوم القديس يوحنا المعمدان الى حذاء دير القديس ستيفن ، وهو دير كان يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من القسطنطينية ، ومن تلك النقطة كان أمام جميع الذين كانوا على ظهر السفن كامل منظر المدينة ، وهنا دخل الأسطول الميناء ، وألقت السفن مراسيها ، ويمكنني أن أؤكد لكم أن كل من لم يسلف له أن رأى القسطنطينية مطلقا من قبل كان يحمل بتركيز الى المدينة ، وهم لا يتخيلون مطلقا أنه يمكن أن يكون هناك مثل هذا المكان الجميل في كل الدنيا ، ولاحظوا الأسوار العالية والأبراج الباقية التي تحيط بها ، وقصورها الفخمة ، وكنائسها الشامخة التي كان يوجد فيها كثير جدا ، حتى أن أحدا كان لا يمكنه أن يصدق أن هذا حقيقي لو لم يره بأم عينيه ، ويرى طول المدينة وعرضها التي يحكم بسمو فوق كل المدن الأخرى ، وفي الحقيقة لم يكن هناك رجل مهما بلغت به الشجاعة والجرأة لم يرتجف جسده رعبا من هذا المنظر ، ولا كان هذا مما يثير العجب لأنه لم يسلف مطلقا أن نفذ مثل هذا العمل الكبير من قبل أي شعب منذ خلق الدنيا ، وبعد أن نزل البارونات ودوح البندقية الى الشاطئ عقدوا مؤتمرا في دير القديس ستيفن ، ظهرت خلاله كثير من الخلافات في الرأي ، ولا أقترح أن أخبركم هنا بكل الخطب التي القيت في تلك المناسبة ، ولكن أعتقد أنه من المناسب أن أروي كيف أنه في حوالي انتهاء المفاوضات نهض الدوح على قدميه ، وخاطب الاجتماع قائلا : « سادتي إنني أعرف عن الاحوال في هذه الأجزاء أكثر مما

تعرفون ، حيث أنني كنت هنا من قبل ، إنكم الآن مذبذبون بأعظم وأخطر مغامرة تولوها أي شعب آخر حتى يومنا هذا على الإطلاق ، وبناء عليه إنه من الأهمية البالغة لنا أن نتصرف بحكمة وحذر ، ودعوني أبين أنه إذا ذهبنا بطريق البر فإن هناك اصقاعا هائلة من الريف علينا قطعها ، في حين أن جماعتنا في عجز مالي وليس لديهم سوى القليل للأكل ، وبالتالي إنهم سيتبعثرون في كل الاتجاهات بحثا عن الغذاء ، والآن إن كل هذه المنطقة كثيفة السكان وليس بإمكاننا أن نضع رقابة صارمة على رجالنا حتى لا ن فقد بعضهم على الطريق وهذا ما لا ن قدر عليه ، لأنه ليس لدينا سوى القليل جدا من الرجال لهذا المشروع الذي بين أيدينا .

إن هناك جزرا قريبة - ويفسكنكم رؤيتها من هنا - يسكنها أناس تنتج مزارعهم القمح واللحم وسلع أخرى من مثل ذلك ، واقترح أن ندخل سفننا الى الميناء هناك لنجمع ما يمكن أن تمننا به تلك الجزر من القمح والموئن الأخرى ، وعندما نكون مخزوننا كافيا من الطعام نتخذ موقفا تجاه المدينة ونبلي ما قدر الرب لنا من بلاء ، لأن الرجل الذي يجد شيئا يأكله يقاتل بحرص أكبر للفوز من ذلك الذي لا شيء في معدته ، ووافق البارونات على فعل ما أشار به الدوج ، ثم تفرق الجمع للعودة الى سفنهم .

واستراح الجيش تلك الليلة ، وفي الصباح الذي كان يوم يوحنا المعمدان رفعت الأعلام والرايات البحرية على صواري السفن ، ونزعت الأغشية عن الدروع وعلقت حول كل جوانب السفن ، واهتم كل رجل بأن يتأكد من أن كل الأسلحة والتجهيزات التي سيستعملها في حالة صالحة ، لأن كل منهم كان يدرك جيدا بأنها ستكون لازمة له قبل مضي وقت طويل .

ورفع البحارة المراسي ونشروا قلوبهم في وجه الريح ، وأعطاهم الرب نسيمًا طيبًا فيما بعد كما كانوا يحتاجون ، ومر الأسطول أمام الأسطونطينية قريبا جدا من أسوارها وأبراجها حتى أنه كان بإمكان

الرجال أن ينصفوا الكثير من السفن الرومية ، واحتشد كثير من الناس على شرفات الاسوار حتى بدا كما لو أنه لم يعد هنا المزيد في بقية العالم من يمكن جمعهم معا ، وهكذا حدث بمشيئة الرب أن تخلى البارونات مضطرين عن الخطة المتفق عليها في اليوم السالف في الابحار في اتجاه الجزر ، حتى أنه بتأثير ذلك بدأ الأمر كما لو أن احدا في الواقع لم يسمع مطلقا بذكر مثل هذا المشروع ، وكانوا الآن يتجهون نحو الأرض الرئيسة بأقصى ما يمكن أن تسمح به سفنهم من حركة باتجاه مستقيم ، وأمر الأسطول بالرسو تجاه قصر كان يعود للإمبراطور الكسيوس في مكان يدعي تشالاسيدون ، كان يقع مباشرة مقابل الأسطنطينية على جانب المضيق الأقرب الى تركيا ، وكان هذا القصر واحدا من أجمل ما يمكن أن تراه العين وأكثره سعرا على الإطلاق ، وفيه من المباهج كل ما يمكن أن يتمناه الانسان ، أو ما يجب أن يكون في بيت أمير .

وبعد النزول الى البر أخذ البارونات مراكزهم في القصر ، أو في المدينة حوله ، ونصب القسم الأكبر منهم سرايقهم ، وعندما أصبح الجميع مستعدين أخرجت الخيول من مراكب النقل ، في حين نزل الفرسان والمشاة بتجهيزاتهم الكاملة من الاسلحة ، حتى لم يبق أحد في السفن سوى البحارة ، وكان الريف حول تشالاسيدون جميلا وخصبا وزاخرا بوفرة ، وبمؤن جيدة من كل الأنواع والأصناف ، وكان القمح الذي جرى جنيه للتو مكوما ومخزنا في الحقول في العراء ، حتى أن كل من كان في حاجة ماسة اليه يمكنه أن يأخذ كل ما يحتاجه .

وأما البارونات اليوم التالي في تخوم القصر ، وبعد يومين وعندما أرسل الرب لهم ريحا مواتيه رفع البحارة المراسي ، ونشروا القلوع لتتلقى النسيم وعبروا المضيق حتى أكثر من بضعة فراسخ فوق الأسطنطينية الى حيث كان يوجد قصر آخر كان يعود الى الامبراطور اليكسيوس في مكان كان يدعى سكوتاري ، وهنا ألفت جميع السفن بما فيها الشوانى ومراكب النقل مراسيها ، وفي الوقت

نفسه كان الفرسان جميعا قد تمركزوا في القصر وحوله وشقوا طريقهم سيرا على طول الشاطئ ، وهكذا عسكر الجيش الفرنسي على مضائق سانت جورج في كل مكان من سكوتاري وعلى مسافة أبعد على الشاطئ ، وما أن علم الامبراطور اليكسيوس بتحركاته حتى أحضر جيشه الى خارج القسطنطينية ، واتخذ موقعه على الجانب الآخر من المضيق في مواجهة معسكر الجيش الفرنسي مباشرة ، وهناك نصب خيامه كي يكون مستعدا لاقامة أي محاولة من جانبنا ، للنزول العاصف الى البر ، وبقيت القوات الفرنسية حيث كانت للأيام التسع التالية ، وحصل كل من كان في حاجة للمؤن عليها بأنفسهم ، وكان هذا يعني كل رجل في الجيش .

الفصل الثامن

الاستعداد للهجوم

٢٦ حزيران - ٤ تموز ١٢.٣

وبينما كانت القوات في سكوتاري خرجت مجموعة من الرجال الجيدين الموثوقين الذين كان واجبهم البقاء خارج المعسكر لحراسة الجيش ضد أي هجوم مفاجيء ، وحماية الكشافة الذين خرجوا في يوم ما لاستكشاف الريف حولهم ، وكان بين هذه المجموعة يودس دي شامبلت وأخوه وليم وأوغيير دي سانت خيرون وماانسبير دي أيل . والكونت جيرارد ، وهو نبيل من لومبارديا كان تابعا للمركيز دي مونتفترات ، وكان معهم حوالي ثمانين من الفرسان الجيدين الشجعان .

وخلال فترة استطلاعهم لحوا بعض السراقات المنصوبة عند سطح جبل على بعد بضعة فراسخ من المعسكر ، وكانت هذه تعود الى أمير البحر التابع لامبراطور القسطنطينية ، الذي كان معه حوالي خمسمائة فارس رومي ، وحالما لمح أصحابنا هذا المعسكر وزعوا رجالهم الى أربع مجموعات بقصد مهاجمته ، وعندها سحب الروم بدورهم قواتهم ، واتخذوا تشكيلا قتاليا ووزعوهم أمام السراقة في انتظار الهجوم ، وتقدم رجالنا وهاجموهم بقوة .

وبعون الرب لم تدم هذه المعركة طويلا ، لأن الروم بعد فترة قصيرة أداروا ظهورهم وهربوا ، لقد هزموا من أول مواجهة ، ولاحقهم رجالنا لما يزيد عن فرسخ وفي هذه المصادفة كسب المنتصرون عددا جيدا من الخيول الحربية ، والخيول القوية ، والخيول الصفيضة والبغال وغنائم أخرى مما هو معتاد في

مثل هذه الأمور ، وبعد ذلك عادوا الى المعسكر وجرى لهم ترحيب حار من قبل رفاقهم الذين اقتسموا معهم غنائمهم بطريقة موائمة وصحيحة ، وفي اليوم التالي ارسل الامبراطور رجلا موثوقا هـنو نيكولاس رو ، وكان من اهل لومبارديا ، ارسله كمبعوث لمعسكرنا مع خطاب موجه للكونتات والبارونات ، فوجدهم في مؤتمر في قصر سكوتاري الجميل ، وبعد ان حياهم نيابة عن الامبراطور الكسيوس إمبراطور القسطنطينية ، سلم رسالته الى المركيز دي مونتفرات ، فأخذها المركيز وقرأها بصوت مرتفع في حضور كل البارونات ، وكانت تحوي كثيرا من الأشياء المختلفة لن يرويهـا هذا الكتاب ، ملاحظا فقط بأنها كانت متبوعة بتصريح يشهد بإمكانية الاعتماد على الحامل نيكولاس رو ، مع طلب إعطاء الثقة والاعتماد لما يقوله. وخاطبه المركيز قائلا :

سيدي الطيب لقد لاحظنا محتويات رسالتك ، وهي تطلب منا أن نعطي المصادقية لما تقول ، وأن نعتمده وهذا ماسنفعله بالتأكيد ، لهذا تكلم بحرية ودعنا نعرف مالذي في فكرك .

وأجاب المبعوث الواقف أمام البارونات هكذا : سادتي لقد أرسلني الامبراطور الكسيوس لأقول أنه مدرك تماما أنكم بعد الملوك ، انتم انبل الرجال الأحياء ، وأنكم أنتم من أفضل بلاد العالم ، وهو بناء عليه يتعجب بشكل جدي لماذا ولأي سبب دخلتم هذه البلاد التي يحكمها ، لأنكم مسيحيون تماما مثله ، وهو يعرف جيد جدا أنكم تركتم بلادكم لتحرير الأرض المقدسة ، فيما وراء البحار ، وصليب الصليب المقدس ، والضريح المقدس ، فاذا كنتم فقراء وفي حاجة الى المؤن فانه سيعطيكم حصة من مؤنه وأمواله طالما أنكم ستدسحبون من أرضه ، واذا رفضتم المغادرة فانه سيكون مكرها لايقاع الأذى بكم ، ذلك أنه بإمكانه أن يفعل ذلك لأنكم لو كنتم عشرين ضعف ما أنتم عليه ، فإنكم لن – بفرض أنه اختار ايذاءكم – تستطيعوا ترك هذه البلاد دون فقد الكثير من رجالكم الى جانب معاناة الهزيمة .

وبإرادة وموافقة البارونات الآخرين ، ودوح البندقية ، نهض فارس حكيم فاضل ومتحدث بليغ لاجابة المبعوث ، فقال : « سيدي الطيب لقد أخبرتنا أن أميركم يتعجب كثيرا من أن أمراءنا وباروناتنا قد دخلوا ولايته ، وجوابنا هو أننا لم نكن لندخل ولاياته لولا أنه قد تملك ظلما هذه الأرض ، ودفاعا عن الرب ، والحق والعدل ، أنها تعود لابن أخيه الذي يجلس هنا على عرش بيننا - أنه ابن أخيه - الامبراطور اسحق ، وعلى أي حال اذا وافق أميركم على أن يضع نفسه تحت رحمة ابن أخيه ، وأن يعيد اليه تاجه وامبراطوريته ، فاننا سنرجو الأمير أن يمنحه مالا كافيا ليعيش بأسلوب ثري ، ولكن مالم تعودوا لاعطائنا مثل هذه الرسالة المطلوبة ، ادعوا الرب الا تغامروا بالمجيء الى هنا مرة أخرى ، وهكذا غادر المبعوث ، وعاد الى القسطنطينية ليرى الامبراطور اليكسيوس »

وفي اليوم التالي اجتمع البارونات معا واتفقوا على أن يظهروا اليكسيوس الشاب الامبراطور صاحب الحق في القسطنطينية لشعب المدينة ، ولهذا أصدروا الأوامر لكل الشواني بالتسليح ، وصعد دوح البندقية ، والمركيز دي مونتفرات الى ظهر احداها ، وأخذوا معهم الأمير اليكسيوس ، بينما دخل أكبر عدد ممن رغب من الفرسان والبارونات في مصاحبتهم الى السفن الأخرى .

ومروا على طول محاذة أسوار القسطنطينية وعلى مقربة منها ، وأظهروا الأمير الشاب للروم ، وقالوا : هذا هو أميركم الطبيعي ، ونطلب منكم أن تصدقوا أننا لم نحضر لايدائكم ، بل على العكس لحمايتكم والدفاع عنكم ، طالما تتصرفون كما يجب ، ان الذي تطيعونه الآن كملك يحكم بينكم دون حق عادل مشروع ، ليكون امبراطورا لكم يدافع عن الرب والحق ، وأنتم تعرفون جيدا كيف تصرف بشكل خياني تجاه الرجل الذي هو أميره وأخوه ، وسمل عينيه ، وبشكل فضيع وظالم أخذ منه الامبراطورية ، هذا هو أميركم الحقيقي وسيدكم ، فاذا وقفتم في

- ٤٤٤٠ -

جانبه فانكم تفعلون مايجب فعله لكن اذا اجمتم اننا سنفعل أسوأ مايمكننا فعله ، ومع ذلك فمن مطلق الخوف والرعب من الامبراطور الكسيوس لم يجرؤ رجل واحد من تلك الأرض أو في المدينة أن يظهر أنه في جانب الأمير الشاب ، وهكذا عاد البارونات الى المعسكر ، وذهب كل رجل الى موقعه .

وفي اليوم التالي بعد حضور القديس اجتمعوا في مجلس استشاري معا ، وكان الجميع على ظهور الخيل في العراء في الحقول ، كانت تشاهد هناك أعداد كبيرة من الخيول الحربية القوية والعديد من الفرسان الجيدين فوق ظهورها وكان هدف الاجتماع ترتيب وتنظيم الفرق وإعداد تشكيلاتها وكانت هناك مناقشات كثيرة في أمور مختلفة بالتفصيل ، ولكن في النهاية تمت التسوية على أنه طالما أن الكونت بلدوين دي مونتفرات لديه وتحت إمرته العدد الأكبر من الرجال ذوي الخبرة ورماة السهام وحملة القوس والذشاب من أي أمير آخر في الجيش فانه يجب أن يولى على المقدمة .

وبعد ذلك تم ترتيب أن يشكل أخو الكونت هنري مع ماثيو دي والنكورت ، وبلدوين دي بوثوار ، وكثير من الفرسان الجيدين الذين جاءوا معهم من ولايتهم الفرقة الثانية ووضعت الثالثة بإمرة الكونت هوغ دي سانت بول الذي كان معه ابن أخيه بيير دي أميان ويوستاش دي كانتلون وأنسو دي كايو وكثير من الفرسان الجديريين من الاقليم نفسه .

وجعل الكونت لويس دي بلوا مسؤولا عن الفرقة الرابعة ، وهذه كانت فرقة كبيرة جدا وقوية ومهيبية لأنها كانت تضم عددا كبيرا جدا من الفرسان الشجعان ومن رجال آخرين ذوي كفاءة قتالية جيدة .

وشكل رجال شامبين تحت قيادة ماثيو دي مونتمورنزي الفرقة الخامسة ، وكان جيوفري مارشال شامبين في هذه الفرقة مع أوغيبير دي سانت خيرون ، ومانسبير دي آيل ، وميلون لى

برابارنت . وماكير دي سانت مينوهولد . وجين فواستون وغي دي شاب ، وابن أخيه كلير مبود ، وروبرت دي رنسوا ، وقد ضمت كما يمكن القول عددا كبيرا من الفرسان الجيدين ، وكون البيرغنديون الفرقة السادسة وبينهم كان يودس دي شامبلت ، وأخوه وليم ورتشارد دي دامبيير ، وأخوه يودس وغي دي بزم وأخوه ايمون وأوتو دي لاروش ، وغي دي كونفلانس الى جانب رجال من الاقليم نفسه ومن مقاطعاتهم العديدة ، والفرقة السابعة وكانت كبيرة جدا وكان يقودها المركيز دي مونتفترات ، وكان فيها اللومبارديين والتوسكانيين والالمان والرجال من كل الأراضي الممتدة من مونت سنيس الى ليون على الرورن ، وقد رتب أن تكون هذه الفرقة في الساقاة .

وقد حدد الآن اليوم الذي تحمل فيه القوات على سفنها وتمضي لأخذ الأرض بالقوة وتعيش أو تموت ، وكانت هذه ويمكنني أؤكد لكم ، إحدى أكثر المغامرات التي تم توليها من قبل هؤلاء على الاطلاق ، وخاطب الاساقفة ورجال الاكليروس الآخرين مبينين الحاجة الى أن يقوم كل رجل بالاعتراف وكتابة وصيته بما أن مامن أحد يمكنه أن يعرف هدف الرب المختص به ، وقد نفذت هذه التعليمات طواعية وبودع من قبل كل رجل في الجيش .

الفصل التاسع

الحصار الأول للقسطنطينية

٥ - ١٧ تموز ١٢٠٣

وحل اليوم المحدد وكان جميع الفرسان وخيولهم الحربية على ظهر الناقلات ، وكان كل رجل كامل التسليح وخبونه مربوطة ، وفرسه مسرجة بالشكل المناسب ، وسرجه مكسو بغطاء مزركش ، وكان الناس من المراتب الأدنى كرجال من النسق التالي في المعركة متمركزين فوق السفن الحربية ، وكانت كل واحدة من الشواني مسلحة ومتأهبة .

وكان الصباح الباكر فور شروق الشمس جميلا صافيا ، وعلى الجانب الآخر من المضيق وقف الامبراطور الكسيوس ينتظر الهجوم ، وقد وزع جيشه الى فرق عديدة ومزودة بكل التجهيزات اللازمة للمعركة ، وصدحت الأبواق ، وكانت كل سفينة نقل مربوطة بحبل جر الى شيني حتى تصل الى الجانب الآخر بسهولة أكثر ، ولم يسأل أحد أي سفينة تذهب أو لابل أي سفينة يمكنها أن تقلع أسرع ، وتصل الى البر قبل البقية .

ونزل الفرسان من سفن النقل وقفزوا في البحر وخاضوه حتى خصورهم ، وهم بكامل سلاحهم وخبونهم مشدودة ورماحهم في أيديهم ، وبطريقة مشابهة نزل رماة سهامنا والسير جندي وحاملي القوس والنشاب كل في جماعته نزلوا الى البر حالما لمست سفينتهم الأرض .

وبدا الروم وهم مستعدون ليقوموا بعرض جيد للمقاومة ، ولكن

ما أن خفض الفرسان رماحهم حتى استداروا جميعا وفسروا وتخلوا عن الشاطئ لرجالنا ، ويمكنني أن أقول أن أي ميناء لم يؤخذ بأكثر من هذا الفخار ، وبدأ البحارة الآن يفتحون الأبواب في جوانب سفن النقل ، ويقودون الخيول الى خارجها وامتطأها الفرسان بسرعة ، بينما بدأت الفرق في التقدم وفق النظام المعين .

وتقدم الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينو الذي كان يقود المقدمة على رأس قواته بينما تبعتهم الفرق الأخرى حسب النظام المعين لها ، حتى وصلت جميعا الى المكان الذي كان يعسكر فيه الامبراطور ألكسيوس ، وكان على أي حال قد تراجع باتجاه القسطنطينية تاركا خيامه وسرادياته منصوبة ، وحصل رجالنا على كمية كبيرة من الأسلاب هناك .

وقرر باروناتنا أن يعسكروا على طول الميناء تجاه برج غلاطية الذي كان عند أحد طرقي السلسلة التي كانت تمتد من القسطنطينية عبر مدخل الميناء ، والآن أصبحت كل سفينة تريد دخول الميناء يمكنها أن تفعل ذلك فقط باجتياز هذه السلسلة .

وأدرك باروناتنا بوضوح أنهم إن لم يأخذوا ذلك البرج ويحطموا تلك السلسلة فإنهم سيكونون في وضع رهيب ، وكأنهم أموات ، لذلك أمضوا تلك الليلة أمام البرج في حي يدعى استانور ، وكان في الواقع مدينة صغيرة وجميلة وغنية .

وبقي الجيش متيقظا جدا تلك الليلة ، وفي الصباح في حوالي الساعة التاسعة شن الروم في برج غلاطية بدعم من آخرين ممن جاءوا في مراكب من القسطنطينية هجوما علينا ، وهزلت قواتنا الى أسلحتها ، وكان جاك دي أفندسس ورجاله وكلهم من المشاة أول من اشتبك مع العدو ، ولقي كما يمكنني القول مقاومة ضارية وجرح في وجهه بطعنة رمح ، وكان في وضع خطير قريب من القتل المباشر ، عندما قفز أحد فرسانه ويدعى نيكولاس دي جنليان الى

ظهر حصان ونجح في انقاذ اميره من الخطر ، وقد أبلى هذا الفارس نفسه بلاء حسنا في المواجهة حتى أنه كسب مديحا عظيما من أجل سلوكه المقدم .

وأطلقت الدعوة الى السلاح في المعسكر واصطف رجالنا على كل الجوانب ودفعوا بالعدو الى الوراء بقوة ، حتى أن العديد منه قتل أو أخذ أسيرا ، وركض عدد من الروم بدلا من التراجع نحو البرج ، ونزلوا الى المراكب التي جاءوا بها وغرق كثير منهم ، ولكن بعضهم تمكن من النجاة بنفسه ، أما بالنسبة للذين عادوا باتجاه البرج مضت قواتنا في أعقابهم مسرعة حتى أنهم لم يتمكنوا من اغلاق الباب ، وجرى مزيد من القتال العنيف عند المدخل ، بيد أن رجالنا سيطروا على الموقف بالقوة وجعلوا من الذين كانوا بداخل البرج سجناء ، وقتل كثير من الروم أو أخذوا أسرى في مجرى هذه الأحداث .

وهكذا تم الاستيلاء على حصن غلاطية ، وتم كسب المدخل الى ميناء القسطنطينية بقوة السلاح ، وابتهجت قواتنا بدرجة كبيرة بهذا النجاح ، وشكروا الرب بقلوب ممتنة ، وكان أهل المدينة من جانب آخر في غاية الكآبة ، وفي اليوم التالي أحضر كامل اسطولنا من السفن الحربية والشواني ومراكب النقل الى الميناء ، وعند هذه النقطة اجتمع قادة الجيش في مؤتمر لدراسة أي خطة للعمل يجب أن يتبعوها فيما اذا كانوا سيهاجمون من البحر أو من البر ، وكان أهل البندقية متمسكين بقوة بالرأي القائل بأن سلالم تسلق الأسوار يجب أن تمد فوق السفن ، وأن يتم الهجوم من البحر ، واحتج الفرنسيون من جانبهم بأنه لايمكنهم أن يعتمدوا على البحر كما يفعل أهل البندقية ، ولكنهم ما أن وصلوا الى الأرض مع خيولهم وتجهيزاتهم المناسبة بإمكانهم أن يقدموا خدمات أفضل ، وهكذا تقرر في النهاية أن يشن أهل البندقية هجومهم من البحر في حين يقاتل البارونات وجيشهم العدو في البر .

وبقيت القوات في المعسكر للأيام الأربعة التالية ، وفي اليوم الخامس استعد كل الجيش وتقدمت الفرق على ظهور الخيل كل في ترتيبها المعين على طول الجانب الشمالي الشرقي من الميناء حتى أصبحوا أمام قصر بلاشيرين ، وفي الوقت نفسه أبحرت السفن في الميناء الى أقصى طرف بالضبط في مقابل المكان حيث تمركزت القوات الفرنسية وهنا يصب نهر في البحر ويمكن عبوره فقط بجسر حجري ، وقد حطم الروم هذا الجسر ، وعليه أمر البارونات الجيش بالعمل كل ذلك اليوم والليلة التالية في اصلاحه .

وفي صباح اليوم التالي وحالما أصبح الجسر في حالة صالحة ، سلحت الفرق وركبت وفق النظام المحدد الواحدة خلف الأخرى لتأخذ مواقعها أمام المدينة .

ولم تخرج نفس واحدة لهاجمتها ، وكان هذا مدهشا حقا ، حيث أنه مقابل كل رجل كان لدينا في الجيش كان هناك على الأقل مائتين في القسطنطينية .

وقرر البارونات أن يعسكروا بين قصر بلاشيرين وقلعة بوهوموند التي كانت في الواقع بيرا محاطا بأسوار عالية ، وهنا نصبوا خيامهم وسرادقاتهم ، لقد كان منظرا يملا القلب بالفخر والرهبة ، لأن مدينة القسطنطينية كان لها واجهة تمتد في الأرض نحو ستة أو سبعة أميال ونيف ، وكان جيشنا كله كبيرا فقط بما يكفي لمحاصرة إحدى بواباتها ، وكان في الوقت نفسه أهل البندقية وهم في سفنهم على الماء ، قد رفعوا سلالهم ونصبوا عراداتهم ومنجنيقاتهم ، ووضعوا كل شيء في نظام رائع للهجوم ، وأعد البارونات من جانبهم عراداتهم ومنجنيقاتهم واستعدوا للهجوم من البر .

وخلال كل هذا الوقت ربما أقول ، إن جيشنا لم يكن بأي حال متروكا في هدوء وسلام ، ولم يكن هناك في الواقع ساعة واحدة من

النهار والليل لم يكن فيها على واحدة من فرقنا أن تقف وهي كاملة التسليح أمام بوابة بلاشرين ، لتقوم بالحراسة على الآلات وترد غارات المحاصرين من داخل المدينة ، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، لم يتقاعس الروم عن القيام بهجمات متكررة من المدينة ، من هذه البوابة أو البوابات الأخرى ، وأعطوا قواتنا القليل جدا من الراحة حتى أن كامل المعسكر كان يدعى للأسلحة حوالى ست أو سبع مرات في اليوم ، ولم يكن أحد فضلا عن ذلك قادرا على الحركة للبحث عن الطعام لمسافة أبعد من أربع غلوات سهم عن المعسكر وكنا في عجز شديد في المؤن ، سوى بالنسبة للدقيق ولحم الخنزير وكان هذان في الواقع قليلين جدا .

ولم يكن لدى القوات لحم طازج بالمرة ، سوى ما كانوا يحصلون عليه من الخيول التي تقتل وكان هناك في الواقع في كل معسكر طعام كاف فقط للإسابيع الثلاثة التالية ، وهكذا كان جيشنا في حالة بائسة للغاية حيث أنه لم يحدث مطلقا في أي مدينة أن حوصرت مثل هذه الكثرة بمثل هذه القلة .

وعند هذه النقطة وضع البارونات خطة رائعة للدفاع ، فعمسنا المعسكر باحاطته بسياج قوي من الألواح الخشبية الجيدة السمكية مع أعمدة متعارضة وبذلك جعلوا أنفسهم أقوى بكثير ، وأمن من قبل ، واستمر الروم مع ذلك في القيام بمثل تلك الهجمات المتكررة حتى أنهم لم يعطوا القوات أي راحة ، وكان رجالنا في المعسكر يصدونهم بقوة ، وفي كل مناسبة كان الروم يعانون خسائر فاحشة .

وفي أحد الأيام بينما كان البييرغنديون في الحراسة قامت مجموعة من أفضل القوات في الجيش الرومي ، باغارة مفاجئة من داخل المدينة وانقضت عليهم ، وطار رجالنا بدورهم تجاه العدو وهاجموهم بضراوة شديدة حتى صدوهم الى الورا ، وفي ملاحقتهم للروم تبعوهم حتى قرب البوابة حتى أن الرجال فوق الأسوار ألجوا احجارا ثقيلة وكبيرة فوقهم ، وفي هذا الأمر أسر أحد رجال الروم في

المدينة ، وكان يدعى كوندستين لاسكارس وهو ما يزال فوق حصانه على يد غوتبير دي زويلي ، واثناء القتال كسر ذراع وليم دي شامبلت بحجر ، وكان هذا مما يدعو للأسف الشديد ، لأنه كان فارسا شهما وجيدا ، وأنا لا أقترح أن أخبركم بكل الضربات التي وجهت ووقعت في هذه المواجهة ، ولا بعد القتلى والجرحى ، وسأذكر على كل حال أنه قبل أن ينتهي القتال ، جاء فارس كان في خدمة هنري أخي الكونت بلدوين للانضمام الى القتال ، ولم يكن لديه ما يقيه سوى سترة مبطنه ، وخونة من الصلب ، ودرع معلق في العنق ، ومع ذلك فقد أبلى بلاء حسنا حتى أنه كسب شرفا عظيما .

وكان هناك من الأيام القليل مما لم ترو عن وقائعه الحكايات ، ولكني لا أستطيع أن أسجلها ويكفي القول بأن الروم استمروا في الضغط بقوة على رجالنا حتى أنهم لم يستطيعوا النوم أو الأكل أو الراحة ، سوى وهم مسلحون بالكامل ، وربما يمكنني أن أذكر اغارة واحدة من إحدى البوابات التي على طول الجدران التي خسر فيها العدو مرة أخرى بشكل فادح ، وقتل أحد فرساننا ويدعى وليم دي جي في هذه المواجهة ، وفي المناسبة نفسها تميز ماثيو دي والذكورت ولكنه فقد حصانه ، الذي قتل فوق الجسر المتحرك أمام البوابة . وقد أبلى فرسان آخرون عبيدون أيضا بلاء حسنا . وعلى البوابة من الجانب الآخر قصر بلاشرين التي أغار الروم منها كثير جدا ، كسب بييردي براسيو لنفسه شرفا أكبر من أي واحد آخر وبشكل رئيسي لأن مراكزه كانت الأقرب منها حتى أنه أمكن له أكثر أن يساهم في القتال .

وقد تعرض جيشنا لهذه المخاطر ولمحن اختبار القوة لنحو عشرة أيام ، حتى يوم خميس عندما بات كل شيء مع سلالم تسلق الأسوار معدا للهجوم الرئيسي ، ففي هذه الأثناء كان أهل البندقية قد أتموا استعدادهم فوق الماء ونظم أمر الهجوم بحيث يتترك ثلاث فرق للحراسة خارج المعسكر ، في حين تتقدم أربع فرق أخرى للهجوم على المدينة ، وبقيت قوات المركيز دي مونتفرات الأخرى للحراسة في

المخيم في الجانب المواجه للريف الواسع ، تدعمها الفرقة البيير غنبية ورجال شامبين بقيادة ماثيودي ونتمورنسي ، وقاد الكونت بلدوين دي فلاندرز ودي هينوت فرقة في الهجوم برفقة الذين كانوا تحت قيادة أخيه هنري ، والكونت لويس دي بلوا ودي كارتران والكونت هوغ دي سانت - بول .

ونصب الفرنسيون سلمين على شرفات جدار الحصن الأمامي المتاخم للبحر ، وكان الجدار في هذا الجانب يتحكم فيه بقوة الانكليز والدانمركيون ، وكان الصراع الذي أعقب ذلك شديدا وقاسيا وضاريا وبعد بذل المزيد من الجهود العنيفة والقوية تدبر فارسان واثنان من السرجنية صعود السلالم وسيطروا على الجدار وصعد مايزوف على خمسة عشر رجلا الى أعلى ، وسرعان ما اشتبكوا في عراك بالسيوف والبطل ، واستجمع الروم في داخل الحصن شجاعتهم ودافعوا بضراوة حتى دفعوا برجالنا الى الخارج بينما احتجزوا اثنين كاسرى ، واقتيد هؤلاء الى الامبراطور اليكسيوس الذي كان مفرد السرور برويتهم ، وهكذا كانت حصيلة الهجوم فيما يتعلق بالفرنسيين وجرح العديد وترك العديد بأطراف مكسورة ، وقد انزعج البارونات بدرجة كبيرة بسبب هذا الوضع والوقائع ، وفي هذه الاثناء لم يتوقف دوح البندقية عن أداء دوره ذلك أنه شكل جميع سفنه في وضع القتال في خط يمتد بطول ثلاث رميات سهام ، وبعد ذلك بدأ أهل البندقية في الاقتراب من الشاطئ من القسم الذي كان يقع تحت الاسوار والابراج ، وبعدها كان بإمكانك أن ترى منجنقاتهم تقذف بالأحجار من فوق ظهور المراكب الحربية ومراكب النقل مع رشقات السهام من أقواسهم وهي تطير عبر الماء ، وكان رماة السهام يرسلون رشقة بعد رشقة من السهام ، وكان الروم من جانبهم يدافعون بضراوة عن المينة من أعلى شرفات الاسوار مع اقتراب سلالم التسلق التي على ظهور السفن حتى أنه في بعض الأماكن كانت السيوف والرماح تتصادم الواحد مع الآخر .

وكانت الجلبة هائلة حتى بدا كما لو أن كلا من البر والبحر كان

يتفتتان قطعاً ، وكانت الشواني على أي حال لا تجرؤ على الاقتراب من الشاطيء .

ودعني أخبرك هنا بعمل رائع من أعمال البسالة : وقف دوج البندقية مع أنه كان رجلاً مسناً وأعمى بالمرّة تحت قوس سفينته ، وعلم القديس مارك (مرقص) منذور أمامه وصاح في رجاله لينزلوه الى الشاطيء وإلا فإنه سيتعامل معهم كما يستحقون وإطاعوه على الفور حيث مست السفينة الأرض وقفز الرجال منها الى الشاطيء وهم يحملون علم القديس مارك الى الشاطيء ، أمام الدوج وحالما رأى أهل البندقية الآخرون العلم فوق البر وأن سفينة أميرهم تمس الأرض أمامهم شعر كل رجل منهم بالخزي ونزل الجميع الى الشاطيء، ووقفز الرجال من مراكب النقل وخاضوا في الماء ، في حين نزل النين كانوا في سفن أكبر الى القوارب وكان كل واحد منهم يتنافس مع الآخر مسرعين للوصول الى البر ، ثم بدأ هجوم رائع كبير على المدينة ، ويؤكد جيوفري دي فيلهالدين مؤلف هذا التاريخ ، هنا أن أكثر من أربعين شخصاً قد أكدوا له بشكل لا ريب فيه أنهم قد رأوا علم القديس مارك يذوق فوق أحد الأبراج ، ولكن أحداً منهم لم يعرف من غرسه هناك ، والآن دعوني أخبركم بحدث رائع جداً حتى أنه يمكن أن يسمى معجزة ، لقد هرب الناس الموجودون في المدينة وتخلوا عن الأسوار لأهل البندقية ، واندفع هؤلاء جميعاً من خلال البوابات وكل واحد منهم يحاول أن يسبق الآخرين واستولوا على خمس وعشرين برجاً كانت مشحونة برجالهم ، وطلب الدوج احضار قارب لارسال رسل بأسرع ما يمكن ليخبروا البارونات بأنه قد تم الاستيلاء على خمس وعشرين برجاً وليؤكدوا لهم أنه لا يمكن استعادتها مطلقاً ، وكان البارونات من جانبهم في بهجة مفرطة حتى أنهم لم يستطيعوا التصديق أن الأخبار كانت صحيحة ، وفي هذه الأثناء بدأ أهل البندقية بارسال القوارب الى المعسكر الفرنسي محملة ببعض الخيول والدواب التي أخذوها كغنائم في القسطنطينية .

وعندما رأى الامبراطور اليكسيوس أن أهل البندقية قد تمكنوا من دخول المدينة ، بدأ يرسل القوات ضدهم بأعداد كبيرة حتى وجدوا أنه من المستحيل أن يصمدوا أمام العدو ، وبناء عليه أشعلوا النار في الأبنية التي بينهم وبين الروم ، وحيث أن الريح في ذلك الوقت كانت تهب من الجانب البندقي أصبحت النار تدرجيا كبيرة حتى أن الروم لم يعودوا يستطيعون رؤية خصومهم ، وهكذا أصبح هؤلاء قادرين على الانسحاب بسلام الى الأبراج التي استولوا عليها وغزوها من قبل .

وعند هذه النقطة أخرج الامبراطور اليكسيوس كل قواته الموجودة خارج المدينة عن طريق بوابات على بعد فرسخ من معسكرنا ، وجاء عدد هائل جدا منهم يتدفقون حتى ليخيل اليك أن العالم كله قد احتشد هناك ، وبعد أن نظم فرقه فوق السهل ، ركب الامبراطور وزحف معهم نحو المعسكر الفرنسي ، وفي ذلك اليوم كان هنري أخو الكونت بلدوين دي فلاندرز واقفا في نوبة حراسة على الآليات ، برفقة ماثيودي والنكورت وبلدوين دي بوفوار والرجال الذين في فرقته ، ووضع الامبراطور اليكسيوس في مقابلهم فرقة كبيرة من قواته ومعهما أوامر بأن يخرج رجالها من خلال ثلاث بوابات ويشتنوا هجوما على المعسكر من جانب آخر .

وزحفت فرقنا الست الأخرى الآن خارجة من المعسكر حسب الخطة واصطفت في صفوف أمام الطوق ، وكان السرجنية وحملة الدروع على أقدامهم ووقفت خلفهم خيولهم مباشرة ، بينما كان حملة الأقواس ورمات السهام في الأمام ، وكان يرافقهم أيضا جماعة من الفرسان على أقدامهم ، لأن مائتين منهم على الأقل قد فقدوا خيولهم ، ووقف الجميع في هدوء أمام الطوق وبحكمة أيضا لأنهم لو تقدموا لمهاجمة العدو في السهل لأغرقتهم الروم في وسطهم ، ذلك أنهم كانوا أعدادا كبيرة جدا ، وبدا كما لو أن السهل كله كان مغطى بالقوات التي كانت تتقدم ببطء وبنظام جيد ، وكان يبدو أننا في حالة يائسة جدا حيث أنه لم يكن لدينا أكثر من ست فرق ، في حين

كان لدى الروم ما يقرب من ستين فرقة ، وكانت كل واحدة أكثر من فرقنا ، ومع ذلك كانت قواتنا موزعة بطريقة تجعل من غير الممكن مهاجمتها إلا من الأمام ، وأخرج الامبراطور أليكسيوس الآن رجاله متقدما بحيث يمكن لكل جانب أن يرمي في اتجاه الجانب الآخر ، وبسماح هذا بعث دوج البندقية بأوامر الى رجاله قضت بأن ينزلوا من الأبراج التي استولوا عليها ، وأعلن أنه سيحيا أو يموت في صحبة الحجاج ، وهكذا جاء مبحرا نحو المعسكر بأكبر عدد من الرجال أمكنه أن يحضرهم معه ، وكان أول من وضع قدمه على الشاطئ وافترة طويلة نوعا ما ووقفت جيوش الصليبيين والروم تواجه بعضها بعضا ، لأن الروم لم يجرؤوا على الاندفاع نحو صفوفنا ، ولم يكن رجالنا يبتعدون عن طوقهم ، وعندما أدرك الامبراطور الحالة بدأ بسحب قواته ، وحالما جمعهم أدارهم باتجاه المدينة ، واذ رأى ذلك جيش الصليبيين أخذ يزدحف ببطء نحوهم وأخذ الروم يبتعدون ، وفي النهاية تراجعوا الى قصر فيلوباتريون .

ويمكنني أن أوكد أن الرب لم ينفذ قط شعبا من خطر عظيم كان حقا أعظم من الخطر الذي أنقذ منه شعبا ذلك اليوم ، ولم يكن هناك أي رجل في الجيش مهما كان مقداما أو شجاعا لم يمتلىء قلبه بالسرور وهكذا توقفت المعركة ذلك اليوم وبمشيئة الرب لم يحدث شيء آخر ، لقد عاد الامبراطور أليكسيوس الى المدينة وعاد رجالنا الى المعسكر مرهقين ومنهكين كليا ، حيث خلعوا دروعهم ووضعوا سلاحهم وأكلوا وشربوا قليلا بسبب العجز الشديد في التموين .

ودعوني الآن أطلب منكم التأمل في معجزات ربنا وكم هي رائعة عندما يسره أن يقوم بها ، وفي تلك الليلة بالذات جمع الامبراطور أليكسيوس من الأموال والأشياء الثمينة ما أمكنه أن يحمله معه ، وأخذ معه من الناس من رغب في الذهاب معه وهرب تشاركا المدينة ، وكان أهل القسطنطينية منهولين تماما ، ونهبوا الى السجن حيث كان الامبراطور اسحق الذي كانت عيناه مسمولتين محتجزا ،

والبسوه ثيابه الامبراطورية ، وحملوه الى القصر الكبير في بلاشرين
حيث اجلسوه على عرش مرتفع وادوا له قسم الولاء كأمير لهم ، ثم
بموافقة الامبراطور اسحق أرسل الرسل ليخبروا الأمير اليكسيوس
والبارونات بأن مفتصب العرش قد هرب ، وأن شعب القسطنطينية
قد أعاد تنصيب أخيه بمثابة امبراطور شرعي لهم .

وحالما سمع الأمير الشاب الأخبار أرسل للمركيز دي مونتفرات
الذي استدعى على الفور البارونات جميعا من كل المعسكر ، وحالما
اجتمعوا جميعا في فسطاط ابن الامبراطور اسحق ، وأخبرهم
الأمير بالأنباء كان سرورهم بسماعها بالغاً لدرجة لا يمكن وصفها ،
لا بل إن سرورا أعظم من ذلك لم يشعر بمثله أحد قط في هذا العالم ،
وانضمت الجماعة كلها في أداء شكر جليل ونشاع للرب لتحريرهم في
هذا الوقت القصير جدا ، ورفعهم الى هذه الدرجة من ذلك الوضع
المتدني ، وبناء عليه يمكن للمرء أن يقول بحق : « من أراد الرب
مساعدته لا يمكن لأي رجل آخر الحاق الأذى به » .

الفصل العاشر

ميثاق الامبراطور

تموز - تشرين الثاني ١٢٠٣

ومع اقتراب فجر ذلك اليوم بدأ رجالنا في ارتداء دروعهم وتحضير أسلحتهم وكان كل واحد في المعسكر يفعل ذلك ، لأن أحدا لم يكن يثق في الروم ، وبدأت الرسل تخرج من المدينة وكلهم مع القصة نفسها التي تحكى . وقرر البارونات بالاشتراك مع دوج البندقية أن يرسلوا مبعوثيهم الخاصين الى القسطنطينية ليروا كيف كانت الامور حقيقة ، فإذا كان ما قيل لهم صحيحا فإنها سيطلبون من الأب تصديق الميثاق الذي أبرمه ابنه ، والا فإنهم لن يسمحووا للأبن بدخول المدينة ، وكان المبعوثون المختارون لهذه المهمة هم ماثيودي مونتمورنسي ، وجيوفري دي فيلهارين مع اثنين من أهل البندقية عينهما الدوج .

واقنيد هؤلاء الرجال الأربعة الى قصر بلاشيرين وحالما فتحت البوابة نزلوا عن خيولهم ، وكان الروم قد وضعوا حراسا من الرجال الانكليز والدانمركيين مزويين بالفؤوس الحربية (البلط) عند البوابة وعلى طول الطريق حتى الباب الرئيسي للقصر ، وعند دخولهم المبنى وجدوا الامبراطور اسحق مكتسيا بأربية عالية ، حتى لكأن المرء يبحث عبثا ليجد رجلا في أي مكان يلبس بمثل هذا الفنى ، والى جانبه جالست الامبراطورة زوجته ، وهي امرأة جميلة جدا ، وكانت أخت ملك هنغاريا ، وكان هناك أيضا الكثير جدا من اللوردات والسيدات العظام حتى لقد كان هناك بالكاد مكان للتلافت ، وكانت السيدات بشكل خاص مكتسيات ومرتزونات بثراء حتى أنه لم يكن يمكن أن يكون هناك من هن أجمل ، وكل اللين

كانوا في اليوم السالف ضد الامبراطور كانوا الآن شبيهي الرغبة ان يضعوا انفسهم تحت تصرفه ، وجاء المبعوثون ووقفوا بين يدي الامبراطور في حين اضمنى هو وبقية الحاشية عليهم شرفا كبيرا ، وقالوا للامبراطور انهم يرغبون في التحدث معه بشكل خاص نيابة عن ابنه وبارونات الجيش ، فنهض ومضى الى غرفة اخرى ولم يأخذ معه احد سوى الامبراطورة ومستشاره ومترجمه والمبعوثين الاربعة ، وبموافقة مشتركة من رفاقه عمل جيوفري فيلهارين مارشال شامبين بمثابة ناطق باسمهم فخطبه : «ياصاحب الجلالة الامبراطورية انك تعرف أي خدمات قدمنا لابنك ، وتدرك اننا قد التزمنا بشروط اتفارقنا معه ، واننا مع ذلك لا يمكننا ان نسمع له بالمجيء الى هنا ما لم يعطنا ضمانا للاتفاق الذي أبرمه معنا وهو بناء على ذلك كابن لك يطلب منكم ان تصدقوا على هذا الميثاق كما فعل هو نفسه ، وسأل الامبراطور : ما هي شروط هذا الميثاق ؟ فأجاب المبعوث : سأخبركم إن الشروط كما يلي : « أول كل شيء ان تضعوا كامل هذه الامبراطورية تحت سلطة روما التي انفصلت عنها منذ زمان طويل ، ثانيا ان تعطوا ٥٠٠ ٢٠٠٠ مارك فضي للجيش مع تموين لمدة سنة من المؤن للرجال من كل المراتب ، وأن تدقوا ١٠٠٠ ر ١٠ رجل في سفنه الى مصر ، وأن تبقوهم هناك تحت تصرفه لمدة عام ، وأن تحفظوا طيلة حياته وتحت تصرفه بمجموعة من ٥٠٠ فارس في اراضي ما واره البحار لحراستها ، إن هذا هو الميثاق الذي أبرمه ابذكم معنا ، وقد تم تأكيده بالقسم وبعقود مختومة ، وضمن علاوة على ذلك ومن قبل صهركم الملك فيليب ملك المانيا ، ونرغب الآن أن تؤكدوه انتم

ورد عليه الامبراطور كما يلي : إن هذه شروط قاسية جدا ولا أرى حقا كيف يمكننا أن نضعها موضع التنفيذ في الوقت نفسه إنكم قدمتم لابني ولي تلك الخدمات الرائعة ، وحتى لو أننا قدمنا لكم كل امبراطوريتنا فلن تكون أكثر مما تستحقون ، وتم ابداء آراء مختلفة من كلا الجانبين خلال المقابلة ، ولكن في النهاية صدق الامبراطور على الاتفاق بدقة كما أبرمه ابنه وأكده بالقسم وبالعهود مع الاختتام

الذهبية المضافة ، واعطيت إهدى تلك الوثائق للمبعوثين ، الذين بعد ان استأندوا من الامبراطور اسحق عادوا الى المعسكر ليخبروا البارونات بانهم قد انجزوا انهمة.

وبناء عليه امتطى البارونات خيولهم ، واعادوا الشباب بابتهاج عظيم الى والده في القسطنطينية ، وعند وصوله فتح الروم له ابواب المدينة ، واحتفلوا بعودته بابتهاج عظيم ، وكثير من الولاثم ، وكان السرور المشترك للاب والابن عظيما لانهما لم يريا بعضهما منذ زمن طويل ، ولانهما بعون الرب ، وبدعم الصليبيين قد انقذا من تلك الحالة من الفقر والبؤس ، ورفعنا الى ذلك المستوى من القوة ، وهكذا كان هناك سرور في القسطنطينية ، ولم يكن السرور اقل في معسكر الصليبيين في الخارج ، بسبب الشرف والنصر الذي منحه الرب لقواتهم .

وفي اليوم التالي رجا الامبراطور وابنه البارونات باسم الرب ان يذهبوا ويعسكروا في الطرف الابعد في اتجاه استانور ، حيث انهم اذا اخذوا مراكزهم في القسطنطينية هناك مخاطرة بتفجر منازعات ستقوم بينهم وبين الروم ، ربما تدمر المدينة بسببها ، واجاب البارونات بانهم قد خدموا الامير ووالده من قبل بطرق مختلفة جدا ، وهم اليوم لن يرفضوا أي طلب يمكن ان يطلباه ، وبناء عليه نصبوا خيامهم على الجانب الآخر من الميناء حيث عاشوا في هدوء وسلام مع تموين جيد ووفرة من الطعام .

ويمكنني ان اقول ان كثيرا من رجالنا ذهبوا لزيارة القسطنطينية لشاهدة الكثير من القصور الفضة والكنايس الشامخة ، وليروا كل الثراء الرائع للمدينة ، التي كانت افضل من أي مدينة اخرى منذ بداية الزمان ، اما بالنسبة للآثار فإن هذه كانت تسمى كل وصف ، لانه كان هناك في ذلك الوقت من الكثرة في القسطنطينية بقدر ما كان في بقية العالم منها ، وهكذا أصبح الروم والفرنسيون

على وفاق مع بعضهم بعضا في كل النواحي بما في ذلك التجارة والأمر الأخرى .

وبموافقة مشتركة من الفرنسيين والبنادقة والروم تقرر أن يتوج الأمبراطور الجديد في يوم القديس بطرس في بداية شهر آب ، هكذا تقرر وهكذا كان ، وتم الاحتفال بتتويج ابن الامبراطور اسحق بالجلال نفسه والتشريف كما كانت عادة أباطرة الروم في تلك الأيام ، وبعد ذلك بوقت قصير بدأ الامبراطور يدفع بعض المال المترتب ووزع هذا بين القوات بطريقة خصص فيها لكل رجل المبلغ الذي دفعه لرحلته من البندقية

وكثيرا ما كان الامبراطور الجديد يأتي لزيارة البارونات في معسكرهم ، ويضفي عليهم شرفا عظيما بقدر ما كان يستطيع حقا ، وكان هذا بالطبع موافقا فقط بالنظر للخدمة العظيمة التي قدموها له وجاء يوما الى المعسكر ليجري مقابلة خاصة مع البارونات في مقر الكونت بكوين دي فلاندرز ، ودعي دوج البندقية والبارونات الكبار سرا لهذا الاجتماع حيث قدم الامبراطور اقتراحا عرضه بقوله : « سادتي إنني امبراطور بفضل الرب وفضلكم ، وقد قدمتم لي أعظم خدمه قدمها أي شعب آخر على الاطلاق لأي رجل مسيحي ، وأحب أن تعرفوا أن عدا من شعبي لا يحبني مع أنهم يتظاهرون جيدا بذلك ، والروم ككل مليئون بالاستياء لأنه بمساعدتكم استعدت امبراطوريتي

إن تحالفكم مع أهل البندقية سيستمر فقط حتى عيد القديس ميكائيل ، وأنتم على وشك الرحيل قريبا ، ولا يمكنني أن أمل في تنفيذ كل ما وعدت بعمله من أجلكم في خلال هذه الفترة القصيرة ، ويجب أن اخبركم بأن الروم يكرهونني بسببكم وإذا تركتموني سأفقد امبراطوريتي وسيقتلونني ، ولهذا أطلب منكم هذا : إذا بقيتم هنا حتى آذار ، سأبقي اسطولكم في خدمتي لسنة أخرى ، تبدأ من عيد القديس ميكائيل ، ولن اتحمل فقط تكاليف

إبقاء أهل البندقية هنا ، بل سأعطيكم أيضا مثل تلك الاشياء التي تكونون في حاجة إليها حتى عيد الفصح ، وبحلول هذا الوقت أكون قد وصلت الأمور في امبراطوريتي بحيث لا أفقدها مرة أخرى ، وهكذا أكون قادرا على المحافظة على معاهدتي معكم ، لأنني سأكون قد تلقيت الاموال التي سترد الي من كل اراضي ، وسأتزود أيضا بالسفن حتى أتمكن من أن أذهب معكم بنفسي ، أو أرسلها مع جيشكم تماما كما وعدت .

وهكذا يكون لديكم كامل الصيف الذي يمكنكم فيه شن الحرب ضد العرب المسلمين وأجاب البارونات أنهم يحبون أن يتباحثوا في الأمر بشكل منفرد ، وكانوا يعرفون بوضوح تام بأن الامبراطور قد اعطاهم صورة حقيقية للحالة ، وكانوا مدركين تماما بأن مثل هذا المنهاج كما اقترحه كان أفضل سواء بالنسبة له أو لهم ، وقالوا له إنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يوافقوا عليه إلا بالموافقة العامة للجيش ، وهم بناء عليه سيتحرون رأي الجيش في هذا الأمر ، وسيحيطونه علما بما يحدث ، وهكذا ذهب الامبراطور وعاد الى القسطنطينية ، وبقي البارونات في المعسكر وعقدوا في اليوم التالي مؤتمرا دعوا اليه الأمراء الكبار وقادة الجيش إلى جانب معظم الفرسان ، ونقل إليهم هنا طلب الامبراطور بالضبط كما طرحه .

وأدى هذا الاقتراح إلى الكثير من الخلاف في الاجتماع ، بالكثرة نفسها التي حدثت في مناسبات كثيرة أخرى أثارها الذين كانوا يريدون حل الجيش ، حيث أن الأمر كله بنا لهم أنه قد استمر طويلا ، وذكر الطرف الذي أثار الخلاف في كورفو والآخرين الآن بقسمهم ، وقالوا : « أعطونا السفن كما أقسمتم ان تفعلوا لأننا نريد أن نذهب الى سورية . »

ورجاهم آخرون أن يصبروا وقالوا : « ساندتنا لأجل الرب لا تدعو الشرف الذي منحنا إياه يصبح بلا جدوى ، فإذا ذهبنا الى

سورية الآن فإننا سنصل الى هناك في بداية الشتاء حيث يكون من المتعذر شن الحرب ، وهكذا فإن عمل الرب سيبقى دون تنفيذ ، ولكن إذا انتظرنا الى آذار فسنترك هذا الامبراطور راسخا بسلام ، ونمضي ونحن مزويين جيدا بالمال والمؤن ، وعندئذ يمكننا أن نذهب الى سورية ، ومن هناك نمضي في حملتنا على مصر ، وسيبقى اسطولنا على أي حال هنا معنا حتى عيد القديس ميكايل وفي الواقع من عيد القديس ميكايل ، الى عيد الفصح حيث أن البنادقة لا يمكنهم تركنا طالما كان الشتاء مستمرا ، وهذه هي الطريقة التي يمكننا بها الاستيلاء على أراضي ما وراء البحار ، ولم يبال الذين يريدون حل الجيش بأني شيء سواء أكانت هناك أسباب جيدة أو سيئة لفعل ذلك طالما أنه سيحدث ، ولكن الذين كانوا يريدون الابقاء على وحدة الجيش عملوا بفعالية كبيرة حتى أنه في النهاية بعون الرب عقد البنادقة اتفاقا جيدا ووثق بالقسم ليبقى الاسطول في خدمتنا سنة أخرى ، مقدرة من عيد القديس ميكايل ، ويجب أن اضيف أن الامبراطور أليكسيوس قد دفع لهم ما يكفي ويستحق عناءهم ، وأقسم الصليبيون من جانبهم قسما مغلظا أن يبقوا في تحالف مع البنادقة كما كانوا من قبل وللوقت نفسه ، وهكذا ترسخ السلام والوفاق في الجيش.

وبعد ذلك بوقت قصير عانينا من الحظ السيء ، فقد وقع ماثيو دي مونت مورنسي ، وهو أحد أفضل الفرسان في كل المملكة الفرنسية وواحدا من الذين كانوا يتمتعون بالحب والاحترام العميق فريسة المرض ، وتوفي وكان هناك حداد كبير على وفاته ، لأنها كانت خسارة كبيرة للجيش ، وكانت من أعظم الكوارث التي عانى منها حتى الآن بسبب موت أي رجل ، ودفن في كنيسة القديس يوحنا صاحب مشفى القدس .

وبعد ذلك بقليل وبناء على نصيحة الروم والفرنسيين غادر الامبراطور أليكسيوس مع حاشية كبيرة القسطنطينية بهدف تدوير السلام في كل أنحاء امبراطوريته ، وجعلها تحت سلطته ، وكان عدد

كبير من البارونات معه ، في حين تخلف الباقون لحراسة
المعسكر ، وكان بين من أحبوا الامبراطور المركزي دي
مونتفرات ، والكونت دي سانت بول ، وأخو الكونت بلوين ، هنري
دي فلاندرز ، وجاك دي افسنس ووليم دي شامبلت وهوغ دي
كولني ، وعدد جيد من الآخرين الذين لم يذكرنا هنا بالاسم ، وبقي
الكونت بلوين دي فلاندرز ودي هينوت في المعسكر مع الكونت لويس
دي بلوا ودي شاتران والاسم الاعظم من الصليبيين .

وفي اثناء رحلة الامبراطور في مقاطعاته جاء كل الروم على كلا
جانبي المضيق ليضعوا اذفسهم تحت سلطته ويطعموا قسم الولاء
له ، وأن يؤدوا له البيعة كسيد وأمير عليهم ، ولقد فعل الجميع هذا
باستثناء جوهانيتزا ملك الاشيا وهنغاريا

وكان هذا الملك من اهل الاشيا ، وثار ضد ابيه وعمه وحار بهما
عشرين عاما ، وفي النهاية كسب الكثير من اراضيها منهما ، حتى
اصبح ملكا قويا جدا ، وقد غزا في الواقع كثيرا من الاراضي على
الجانب الشمالي والغربي من المضيق الذي كان يملك الان نصفه
تقريبا ، ولم يهضر جوهانيتزا الى حيث كان الامبراطور ليضع
نفسه تحت تصرفه ، ولم يعترف بسلطته .

وبينما كان الامبراطور الكسيوس غائبا في رحلته وقعت حادثة
كانت لها نتائج مفعمة جدا في الاسطنطينية ، فقد تورط الروم
واللاتين الذين كانوا يعيشون في المدينة - وكان هناك الكثير جدا من
الآخرين - في نزاع واشتبكوا في شجار ، وقام اشخاص معينون
لايمكنني ان اتول من كانوا - باشعال النار في المدينة حقا وعمدا
للاندى ، وامتدت النار واصبحت مريعة جدا لدرجة ان احدا لم يتمكن
من إطفائها أو التحكم فيها . وعندما رأى البارونات من معسكرهم
على الجانب البعيد من الميناء المدينة وهي تلتهب ، غلبهم الاسى
والاشفاق وهم يرقبون الكنائس الكبيرة والقصور الاميرية تتعرض
وتتحول الى خرائب ، والشوارع الواسعة حيث كانت حوانيت

التجار والذهب يبتلعها ، ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله أمام هذا وتقدمت النار فوق الميناء وهي تقتحم الأجزاء المكتظة بالسكان من المدينة ، وتمتد نحو البحر على الجانب الآخر على مقربة كبيرة من كنيسة سانت صوفيا القديمة ، واستمرت في هياجها اسبوعا كاملا ولم يتمكن أحد من إطفائها ، وبرؤيتها من الامام وهي تتسحرج مقدمة بلهب كان عرضها يتجاوز فرسخا ، وأي اضرار وقعت أو أي ثروات وممتلكات دمرت في اللهب كان يفوق قدرة الانسان على الحساب ، وكان لايمكن للمرء أن يذكر عدد الرجال والنساء والاطفال الذين هلكوا في ذلك الوقت لأن العبيد احترقوا حتى الموت .

وبعد الكارثة لم يتجرا أحد من اللاتين المقيمين في القسطنطينية بصرف النظر عن البلد الذي جاء منه على البقاء في المدينة بعد ذلك ، بل حاولوا مع زوجاتهم وأطفالهم وبعض ممتلكاتهم النجاة من النار فاتجهوا الى الميناء للاتجاه الى مدسك الصليبيين ، ولم يكن عندهم صغيرا بأي حال ، فلقد كان هناك في الواقع نحو خمسة عشرة الفا ، منهم من كل مراتب الحياة ، وفيما بعد ثبت أن وصولهم كان له مزية كبيرة لنا ، وفي ذلك الوقت على أي حال قد اوجد شرخا بين الروم والفرنجة الذين لم يعودوا مطلقا مرة أخرى الى مثل علاقاتهم الوبية التي كانت من قبل ، ولم يعرف أي جانب منهما من يلوم على هذا البرود ، وقد كان ذلك عبئا ثقيلا على عقول كلا الطرفين .

وحول هذا الوقت كان البارونات وبقية الجيش في شدة الاسى بسبب حادث حزين هو موت راعي بير لويس ، وهو راهب حكيم قدسي من مرتبة الرهبان البندكتيين الذين كانت لهم دائما اهتمامات قلبية بالجيش .